لسلطانه! ويكفي أن يخطر لي هذا الخاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد، ملحة في الخصام، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه، وأعرضت عن أختي وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن، ولم أتمثل إلا عدوًّا يريد أن يقهرني، ولا بد من أن أقهره، وسيدًا يريد أن يبسط سلطانه عليَّ، ولا بد أن أبسط سلطاني عليه.

وكذلك اتصلت حياتي في هذه الدار هادئة في ظاهر الأمر مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكرًا في حقيقة الأمر. ألقى سيدي باسمة ويلقاني باسمًا، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام إلى عبوس، والرضا إلى سخط، وإذا هو يدعو فآبى، ويلح في الدعاء فألح في الإباء، ويغري فأرتفع عن الإغراء، وينذر فأستخف بالنذير، ويستعطف فأقسو على الاستعطاف.

ثم — ياللهول! — ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ وماذا أجد؟ هذا سيدي ماثلًا بين يدي يتلطف ويترقق ثم يستعطف ويستجدي، ثم هذا هو جاثيًا بين يدي كأنه يتقدم إليَّ بالصلاة، ثم هذا هو باكيًا في صمت، ثم هذا هو مجهشًا بالبكاء، وها أنا ذي أكاد أضعف ويكاد يأخذني الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إليَّ أختي وظلالها الحمراء ألتمس منهن العون، وأستمدهن قوة إلى قوة.

وأمضي بعد ذلك فيما كنت فيه من إباء، ثم ينتهي الأمر بيننا إلى شيء يشبه الموادعة، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسي، وإذا هو قد أخلص لي ولنفسه، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار. فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتماله، وأما أنا فأهوِّن عليه الأمر مخلصة صادقة وأزين له الانصراف عني إلى من أحب وما أحب من الخليلات والخدم واللذات، وإذا نحن نتفق على أن نفترق، وإذا هو ينصرف عني على ألا يراني في الدار إذا عاد إليها، وأنا أقبل ذلك راضية عنه سعيدة به؛ فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة، وتثقلها المهاجمة والمقاومة، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير من الإياب، فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء، أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغني القوي أن يبلغ مني ما بلغ من أمثالي؟ أوَلست أخرج من هذه الدار وقد جرعته مرارة الهزيمة وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء؟! ولقد انصرف عني هادئًا وقد أظهر الرضا، وفرغت لأمري أتهيأ للرحيل مزمعة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم في المدينة ولا أعود إلى أقصى الريف، وإنما آخذ قطارًا من هذه القطارات التي تمضي